كلية الآداب
جامعة جنوب الوادى
العدد السابع والأربعون
٢٠١٧م
مجلة كلية الآداب بقنا
مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى - مصر

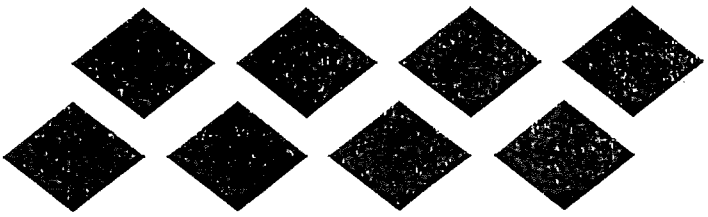

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

قراءة نقدية في مجموعة "أغنيات" من كتاب " الحصار" لأدونيس

د.إيمان محمد أحمد ربيع

جامعة جرش/كلية الآداب/قسم اللغة العربية

الملخص:

يقوم هذا البحث على قراءة في مجموعة "أغنيات" للشاعر أدونيس صاحب الفكر الرافض والفكر الذي لا يهادن التقاليد أبدا، ويطالب بتحولات أساسية عن الثوابت.

ومجموعة أغنيات التي سأتناولها بالدرس والقراءة، تعبر عن تفاصيل الحياة اليومية- وهموم إنسانها، سأعمل على قراءتها وتحليلها من خلال التركيز على عدّة محاور منها: ١- أ- العنونات

ب- التكرار والجمل المفتاحية، ضمير الأنا بين الجماعة والفرد.

٢- لغة شعر المجموعة .

وقد توصّل البحث إلى أن شعر أدونيس في هذه المجموعة، هو صورة لتجربته السياسية والوطنية والإنسانية.

الكلمات المفتاحية: النقد، أغنيات، أدونيس.

تمهيد :

تعددت مناهج النظر في النص الأدبي ونقده وتشعبت، من أسلوبية وبنيوية وتفكيكية وغيرها من المناهج التي استفادت من شتى العلوم الاجتماعية والنفسية في قراءتها للنص والكشف عن أسرار الإبداع فيه.

وبدءاً أقول إني سأقرأ عمل أدونيس معتمدة على منهج وصفي تحليلي، وإن تيسّر لي من معطيات المناهج النقدية الأخرى ما انتفع به فلن أتردد من التعويل عليه.

وأدونيس الذي أدرس مجموعته الشعرية "أغنيات"، شاعر معروف في العالم العربي، له مدرسته في القصيدة المنثورة، فهو الذي حمل على كاهله قصيدة النثر وتنظيراته فيها، وهو أديب وناقد ومفكر له نظريته في التحولات، ومن خلال قراءة أشعاره يجد المرء نفسه أمام شاعر صعب المراس، إذ لم أدرك في كثير من القراءات ما يريده على وجه الدقة إلا بعد أن أتوقف طويلا عند النص. وأدونيس أيضاً صاحب فكر رافض لا يهادن التقاليد أبدا، ويطالب بتحولات أساسية عن الثوابت. إلا أنه، في مجموعته "أغنيات"، كانت رؤاه واضحة ولغته سلسة- فهي كما يقول في كتابه (زمن الشعر) " نوع من العودة إلى البراءة الأولى في الكلمات"- إذ كان يعالج موضوع حصار وطنه لبنان.. وطنه الذي يعاني من الجراح والألم.. وطنه الذي ينزف دما رغم تضحيات شبابه الذي يفديه بنفسه.

أما بصدد شعر مجموعة "أغنيات"، فأدونيس أراد أن يكون شعر" أغنيات" معبرا عن تفاصيل الحياة الصغيرة، وهموم الإنسان اليومية بأدق تفاصيلها، فهو لا يريد أن يتناسى حياة أفراد شعبه وقضاياهم.

عندما اخترت قراءة المجموعة الشعرية " أغنيات" لأدونيس ونقدها راودني شعور بالخوف والتردد، فمن العسير الولوج إلى عالم هذا الشاعر المفكر، على الرغم من أنه من الشعراء الذين أُحبهم، فليس غريبا أن تخذلنا الكلمات في حضرة الشعر والإبداع، ثم إن ندرة المصادر والمراجع حول هذه المجموعة يضاعف الشعور بالتردد، إلا أنني سأعمل بكل إصرار وعزيمة على قراءة هذا العمل قراءة وافية وشاملة تعطيه حقّه إن شاء الله.

أما مصادر الدراسة، فقد تنوعت تبعاً لتنوع القضايا المدروسة، وكان كتاب " الحصار" ومجموعة " أغنيات" منه، هو المنهل الرئيس الذي استقيت منه مادة الدراسة،ثم يليه كتاب "لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث" لعلي الشرع، بالإضافة إلى الكثير من كتب النقد والدراسات الحديثة، التي تناولت الشعر العربي المعاصر والتي ساعدتني في استجلاء الصورة في مضمار تطور قضايا الشعر المعاصر.

لقد حاولت، في الحدود الضيقة لهذا البحث، أن أطرح سؤالاً والإجابة عنه بالإحاطة المطلوبة، وأن أوضّح سبب تسمية هذه المجموعة بأغنيات، ومحاولة الوصول إلى وجود شيء مشترك في الأغنيات بحيث أفردها الشاعر في أغنيات، وقراءة النصوص وتحليلها، من خلال التركيز على عدّة أمور منها:

(١):- أ- العنوانات، ب- التكرار والجمل المفتاحية.

ج- ضمير الأنا بين الجماعة والفرد،

(٢):- لغة شعر المجموعة.

قراءة في المجموعة الشعرية "أغنيات":

كتاب "الحصار" (حزَيران ٨٢-حزَيران ٨٥) للشاعر (أدونيس)، نظم في تاريخ اجتياح القوات الصهيونية للبنان ومحاصرتها بيروت تسعة وثمانين يوما، ولعله قد عبّر عن أزمة النفس الإنسانية المحاصرة بالوقت والمحاصرة بمن يتسلطون على الوقت آنذاك، وهو كتاب يتضمن الشعر والنثر، وفيه كلام دال على أوجاع الحصار، وقسوة الوقت على النفس، وشكوى مريرة.

يحاول أدونيس في كتابه "الحصار" أن يوحد الشتات في أعماق الكيان الإنساني بل إنه ""يؤسس لنوع من الإبستمولوجيا المعرفي قائمة على جدلية تكاملية على نحو خاص. أما عناصر هذه الجدلية أي ثنائياتها فتتلخص في التركيز على السالب على أنه طريق الملكية إلى الوجود. فهو يلح على الألم سبيلاً فاعلاً إلى كيمياء جديدة تتألف من الفرح والألم معاً ولكن بكيفية جديدة"[١]، وكتاب " الحصار" تحرّك ضدّي متسائل " للمرّة الأولى يفارق الشاعر الرؤى ويزعزع الصور والنماذج والرموز ويلتمس اليوميّ المباشر. كما

١- جان طنوس، جدلية النور والظل في كتاب الحصار لأدونيس -الكتابات النثرية، فصول، العدد، ٢١، المجلد ١٦، ١٩٩٧م، ص ص ٤٨-٥٥.

يخترق متن النص إلى الهامش، حيث تتقافز أصوات وتعليقات شعرية تذكر بما دفع قسراً عبر التاريخ، بعيداً عن المتن السلطوي"[1].

لدى قراءة هذه المجموعة "أغنيات" لا بدّ من مراعاة البنية الكلية للمجموعة كلها، بهدف الوصول إلى المنطلقات الأساسية التي يشتغل عليها الشاعر لحظة إبداعه، والتي تسهم في صياغة تجربته؛ فهي تمثل أمارات الرؤيا التي تقود المبدع وتوضح موقفه من نفسه ومن العالم. ومن المؤكد أن البنية الكلية حصيلة تفاعل بنى فرعية عدة، فـ " المعنى الكلي للنص يتحدد من مجموع المعاني والدلالات الجزئية"[2].

قصائد مجموعة أغنيات ليست كقصائد سائر الدواوين الأخرى التي تضم نصوصا كتبت في مناسبات متفرقة، وتنطوي كل واحدة منها على الأقل مضامين خاصة بها لا علاقة بينها تجمعها، أما (أغنيات) فقصائد تجمعها خصائص موضوعية وفنية مشتركة، فهذه القصائد كلها مكتوبة على هيئة الشعر الحر (شعر التفعيلة) وفي وزن واحد هو البحر المتدارك الذي اختار الشاعر منه التفعيلة التامة (فاعلن) لذا جاءت الجمل الشعرية للقصائد جميعها بسيطة، سهلة الوقع في الأذن، راقصة.

وإذ تكون القصائد كلها على وزن واحد تمتلك مشروعية الانتماء إلى بعضها، محققة ذلك بوجودها في ديوان واحد، ويزيد ألفة هذه القصائد إلى بعضها، ومن ثم اجتماعها في مجموعة واحدة أن المحور العام الذي تدور حوله واحد هو محنة حصار لبنان، والغناء للجنوب وصموده وتضحياته وإعلاء شأن شهدائه ثم التعبير عن حب الجنوب والتماهي مع أجوائه وكل مظاهر الحياة فيه.

ومما يشفع لعدة القصائد أن تنضوي تحت عنوان واحد وتتجمع بين دفتي مجموعة شعرية واحدة هو قصرها جميعاً باستثناء قصيدة " الاسم" الطويلة التي كتبت لوحدها ونشرت لوحدها أيضاً وإن كانت "الاسم" مكتوبة على وزن المتدارك بتفعيلته (فاعلن) وعلى هيئة قصيدة تفعيلة.

---

١ – أسيمة درويش، مسار التحوّلات قراءة في شعر أدونيس، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٩.

٢ – سعيد البحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العامة للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م ، ص ٧٥.

ويبدو لمن يتأمل في بنية القصائد أن الشاعر كان قد خطط مسبقاً لأن يجمعها في ديوان، فليس من باب الصدفة أن تكتب كلها في بحر شعري واحد يقوم على تفعيلة بعينها.

وفضلاً عن وحدة المضامين، نجد هناك قصيدة بعنوان (أغنية إلى أحمد ومريم وكريم)، وهذه الأسماء الثلاثة نجدها تدور على وفق هذا الترتيب في عدة قصائد ما يشير إلى وحدة المضمون العام لقصائد المجموعة ووحدة الدوال الرامزة فيها.

مجموعة "أغنيات" من المجموعات المهمة في شعر أدونيس، إذ تمثل " مدى مترامیا من تجربة المعاناة الإنسانية، وبوحا عميقا عن الوجدان الإنسان في حالة الانكشاف المطلق لغزو همجي، واستشرافا مأساويا للذات العربية ببعديها الجغرافي والتاريخي"[1]، وهي أيضا من وحي مرحلة من مراحل حصار لبنان وشعبه، فقد تجلّت في هذه المجموعة أحاسيسه وبانت خبايا عالمه الداخلي والخارجي، لأن الأدب هو تعبير عن البيئة والواقع الذي يعيشه الفنان، فالشعر " ليس سوى وجه من وجوه التعبير عن تصارع الإنسان بما يحيط به، وبما يفرض عليه من مؤثرات في سعيه لتحقيق ذاته ودأبه وراء السعادة"[2]، فأثر البيئة في الشاعر وشعره من المسلمات، فالشعر السياسي مثلا كان أهم مظهر من مظاهر الشعر الأموي، وذلك لأن السياسة كانت عصب الحياة الأموية. وفي العصر العباسي أسرف الشعراء في وصف القصور والبرك ومجالس اللهو والغناء، وما ذلك إلا بتأثير واقع الحضارة الجديدة التي عايشوها والتي كثر فيها الغنى والإقبال على الترف والحياة الناعمة ، وهذا أيضا ما نراه في الملحمة التي تعبّر عن واقع الشعوب البدائية التي تجد مثلَها الأعلى في بالبطولة الحربية، وهذا ما نلمسه في هذه المجموعة، فهي من المؤثرات التي تسربت من البيئة إلى نفس الشاعر، فالبيئة توحي للشاعر موضوعه، فيعطيه معانيه وصوره من قدرته على الخلق والكشف، فقيمة البيئة الماديّة ليست في الموضوع الذي توحي به للشاعر فحسب بل في الصور التي تمدّه بها للتعبير عن انفعالاته أيضاً.

---

١ – علي الشرع، قصيدتان في زمن الحصار: محمود درويش،(قصيدة الوقت)، أدونيس، (قصيدة الوقت)، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد١، العدد١، ١٩٩٢م، ص ١٤٩.

٢ – إيليا سليم الحاوي، نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، ط٣، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٩م، ص ٧٨.

ويمكننا هنا أن نشير إلى أن هناك اختلاف بين التجديد والحداثة بالنسبة للبيئة " فالتجديد مرتبط ببيئته، فما هو جديد في بيئة ما قد يكون مألوفا في بيئة أخرى، أما الحداثة فهي تختلف عن ذلك، وهي مرتبطة ببيئتها من جهة ومرتبطة بالحداثة الشعرية في العالم من جهة، ويسعى الشاعر الحداثي للحصول على مكان قدم له في ساحة الشعر العالمي، وإذا كانت رؤية المجدد محددة في بيئة ما، تنطلق منها وتعود إليها، فإن رؤية الشاعر الحداثي أبعد من ذلك، فذاك يغيّر في مجال واقعه، وهذا يغيّر في مجال واقعه ويسعى إلى التغيير في الساحة العالمية، ولذلك فإن صوت الحداثة أبعد مدى من صوت التجديد، وهو ذو سمات وحدود وفعاليات مختلفة، ولذلك يكون مجال الحداثة أوسع وأكثر شمولية من مجال التجديد، ومن هنا فإن المسافة تتسع بينهما، فليس كل شاعر مجدّد حداثيا بالضرورة، ولكن الشاعر الحداثي مجدد، والتجديد مجرد مظهر من مظاهر الحداثة[1].

وهنا ترى الباحثة أن أدونيس يرى في الحداثة الشعرية أنها رؤية جديدة، رؤيا تساؤل واحتجاج، ونجده قد التقط جزئيات صوره من واقع الحياة وآثار الحصار الذي طوّق وطنه، ومما يعانيه من عذابات، وكأنه مصور يلتقط مفردات صوره بحرفية عالية، ثمّ يخرج منها إلى الذهني المجرد مستدعيا ذخيرته الثقافية الخاصة يستعين بها على ربط هذه المفردات ليكوّن منها تشكيله الصوري. محاوراً الرموز الشعبية والدينية ليسقطها على الصور لتشي بمعاناة الواقع الراهن المليء بالعذبات والدم .

ويمكن القول إن ثمة تحوّلا قد طرأ على تجربة أدونيس، أسهم في تغيير الدوال، والمدلولات، والوعي، والرؤيا التي يحملها الشاعر، بحيث يمكن القول أن كتاب "الحصار" وخاصة مجموعة " أغنيات" يمثل " شهادة عميقة على طبيعة الاستجابة الإنسانة الخالصة لظروف من يقع في بؤرة الحدث، حيث التخوم المشتركة لقطبي الحياة والموت، والتخوم المشتركة لخيوط الزمان وأرجاء المكان متحلقة دفعة واحدة بشكل لم يحلم به متأمل أو فيلسوف، وحيث تتجمع كل أبعاد المأساة في جسد آدمي عار منكشف، ثم تسمو لتتركز في نشاط ذهني ووجداني لم يصدف أن حدث إلا في حالة من رأى العالم قد جن، وفي

---

١ – خليل الموسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، دمشق، مطبعة الجمهورية، ١٩٩١م، ص١٨.

حالة من رأى نفسه في طرف والعالم كله في طرف مقابل". وستسعى الدراسة لكشف ملامح هذا التحول في الرؤيا الأدونيسية، التي تعني تحديد سمات الرؤية الشمولية التي طرأت على التجربة، وما تحمله من معان ودلالات، وقد اتكأت هذه الدراسة على عدة آليات هي:

أ- العنوانات.

ب- التكرار والجمل المفتاحية.

ج- ضمير الأنا بين الجماعة والفرد.

العنـــوان:

عنوان الديوان مدخل منه إليه، فهو ذو أهمية عالية؛ بوصفه المؤشرَ الإعلاميَّ الأولَ الذي يواجه المتلقي، والمفتاح الأساسيَّ للولوج إلى أغوار النص العميقة؛ بقصد استنطاقها وتأويلها[1]، فـ" قيمة العنوان متأتية من وصفها وسيلة خاصة قوية لتحقيق التغريض"[2]،ويمكننا التأكيد على أنّ له " وظيفة إغرائية إذ إنّه يفتح شهية المتلقي للقراءة"[3]، وقد اعتبره كثير من الدارسين "مدخلاً من مدخلات الخطاب، وعتبة أولى من عتبات النص، وعنصراً مهماً في تشكيل الدلالة، وتفكيك الدوال الرمزية، وإيضاح الخارج؛ قصدَ إضاءة الداخل "[4]، فالعنوان يضعنا أمام " احتمالات وتصورات تمارس أثرها في موقف المتلقي من النص"، فالعنوان ومعه المقاطع المتكررة في النص يعد" مفتاحا من مفاتيح النقد الموضوعاتي الذي يسعى لتحديد البنيات الدالة في النص للوصول

---

١ – كان جيرا جينيت واحداً من أهم نقاد الحداثة الذين أولوا العنوانَ أهمية في كتابه المهم " طروس" جاعلاً إياه واحداً من أنواع ما أسماه بـــ " الملحق النصي"، وهو النمط الثاني مما أطلق عليه اسم " التعددية النصية"، والملحق النصي para text، ليشمل: (العنوان، العنوان الصغير، العناوين المشتركة، المدخل، الملحق،...).

انظر: زاهر بن مرهون الداودي: الترابط النصي بين الشعر والنثر، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٠م، ص ١٥٩.

٢– محمد فكري الجزار: العنوان وسيمبوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ١٥.

٣– روبرت شولز: اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة سعيد الغانمي، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، ص ٩٣.

٤– بسام قطوس: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠١م، ص ص ٤٦– ٥٣.

إلى بنيته الكلية"[1]، وتسمية المجموعة بهذا الاسم "أغنيات" ليست عبثية، بل مقصودة لتظهر الشفافية والتكثيف في آن واحد كما أرى، فعند النظر في هذا العنوان نجد كلمة "أغنيات" جاءت على صيغة الجمع مستثمرا دلالة الجمع لاستيعاب متفرقات النصوص وتحولاتها[2]، إنه أغانٍ بعدد القصائد الفرعية داخل المجموعة، وكأن كل قصيدة أغنية، وكل فكرة وردت في خاطره وسمها بأغنية، فهي جميعها تغني للجنوب وتعلن الحب والولاء له وتصرح بالاستعداد للتضحية من اجله.

عنوان المجموعة "أغنيات" جاء من كلمة واحدة وبصيغة الجمع مما يوحي بتفجير الإيحاءات الدلالية في فضاءات اللقطة التعبيرية والولوج إلى عالم من الوجد الصوفي ونبض الروح، بالإضافة إلى توفر حالة من الإدهاش والشاعرية والتخييل، وهو ما يدل على قدرة الشاعر على خرق فضاءات لعبة الرموز السحرية وتعدد الإشارية في النص الشعري. وهذه الكلمة "غنيات" جاءت نكرة وهو ما يمنحها تعدداً في الإشارية والدلالات وخاصية معنوية تبعث في المرء عادة جواً من التفاؤل والمرح والانتشاء، وقد يصاحبها جو احتفالي صاخب، وقد تكون هناك أغنيات شجية يصحبها الحزن والأسى كما هو الحال مع السطور الشعرية هنا، ولهذا نرى انكسار أفق توقع القارئ هنا والاكتشاف بأن الإنثيالات الدلالية للعنوان (أغنيات) تنم عن عاطفية شجية تبعث على الأسى والحزن والمرارة في النفس"[3].

وبهذا فعنوان القصيدة يتوفر على دلالات متعددة تتفاعل باحتفالية صاخبة في دواخل الذات الشاعرة. كما أن انتقال الشاعر بشكل متعاقب من ضمير المتكلم، إلى ضمير الغائب، ومن الغائب إلى المتكلم، أدى إلى خلق جو من التعاطف والالتفات إلى بطلة

---

١ انظر: نايف العجلوني: قراءة في قصيدة الوقت لأدونيس، مجلة أبحاث اليرموك، مج ٧، ع ١، ١٩٨٩م، ص٩٩.

٢ – انظر: سامح الرواشدة، في الأفق الأدونيسي–دراسة في تحليل الخطاب الشعري، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٥م، ص ١٢٣.

٣ – انظر: أدونيس والعودة إلى الذات.. دراسة نقدية تحليلية: لعينة عشوائية لبعض قصائده. www.welateme.info/cand/modules.php?name=News&file=prin

القصة الشعرية والتي ربما ترمز إلى وطنه بل الإنسانية كلها المرموز لها بالجنوب وزينب وفاطمة ...

وقد انطوت البنية الإستراتيجية للنص في المجموعة "أغنيات" على الخوف والحيرة والقلق وعبارات التساؤلات اللطيفة الصادرة عن عواطف إنسانية مؤثرة، فـ "التساؤلات الضمنية تشكل تتابعات مركزية وحراكاً انفعالياً وإمداءات دلالية في جسد النص الشعري، وهو ما أدى – مرة أخرى – إلى خلق حالة من التوهج الإبداعي امتزج فيه الذاتي بالكوني والإنساني بشكل لافت، وأفضت إلى نوع من جمالية التلقي أي هناك ما يمكن أن نسميه بتوتر مؤثر بين الأطراف الثلاثة المبدع والمتلقي والنص"[1].

جاءت المجموعة في أربع وعشرين قصيدة أو مقطعاً، موسومة بـ" أغنية إلى ..."، باستثناء أخر قصيدة، إذ جاءت بعنوان " الاسم " لتقول إن الاسم ما هو إلا الجنوب- لبنان، ولتؤكد أهميته وخصوصيته وما يعاني من حصار. ففي هذه المجموعة يظهر أثر المكان في صياغة الذات، وتأثيره في تغيير الذات، إذن ثنائية (الذات/ المكان) أساسية في المجموعة حيث تظهر التحولات التي أصابت الذات نتيجة لتحولات المكان.

ثمة ما يلفت النظر في المجموعة الشعرية "أغنيات"، فأغلب قصائد المجموعة لا تتعدى الأسطر القليلة؛ وتتصدّر كل قصيدة كلمة (أغنية) وكأنها تؤكد فكرة معينة أو هاجسا معينا يؤرق الشاعر، فالخروج إلى الغناء دلالة على وجود ألم وضيق في النفس، فلم يكن بوسع الذات إلا الغناء، فضلاً عن تكرار بعض القصائد تحمل العنوان نفسه،مع تغيير طفيف. وحتى نقف عند الدوافع التي تكمن وراء هذه الظاهرة، لابد من تحديد هذه القصائد . وهي على النحو الآتي :

اسم القصيدة / رقم الصفحة

أغنية إلى هو/ ١٧٤.

أغنية ثانية إلى هو/ ١٨١.

أغنية إلى هذا الزمن/ ١٦٢.

أغنية إلى الزمن- الضد/ ١٦٣.

---

١ – انظر: أدونيس والعودة إلى الذات.. دراسة نقدية تحليلية: لعينة عشوائية لبعض قصائده. www.welateme.info/cand/modules.php?name=News&file=prin

قد يعزى مثل هذا التكرار في العنوانات إلى حالة الاضطراب التي تعيشها البلاد العربية، والحالة التي يعيشها الشاعر أيضا، والتي تطغى على تفكيره وتملي عليه كثيراً من الصور والمشاهد والصياغات.

ومن الضرورة بمكان أن نتساءل: لماذا اختار الشاعر، مفردة "أغنيات" على وجه التحديد عنوانا لمجموعته؟ ويبدو أن الجواب المناسب: أن الشاعر أراد أن يوجه نداء إلى قرائه فاختار أسم أغنية، ومن المعروف أنّ الأغنية شيء محبب للنفس أنها تترك أثرا عند المتلقي، " إن الأغنية شعر يؤدى...ولا يمكن تصور أغنية دون شعر، فارتباطهما إذن ارتباط تكوين، وبناء، وقد شاعت الأغنية مؤخرا بدرجة كبيرة، أشبهت شيوع الشعر في المجتمع القديم، وأصبحت من الخطابات الفاعلة على حد تعبير عبد الله الغذامي"[1] ، وهنا نستذكر أن كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، يحمل عنوانه دلالة واضحة على موضوعات الكتاب، ولكن مؤلفه استغرقه في تراجم الشعراء وأخبارهم وأشعارهم بأجزائه كلها، أما نصيب الأصوات المغناة والمغنين، وأخبارهم فقد كان جد ضئيل. مما يعني أن الاهتمام في الغناء كان منصبا على صاحب الكلمات، ومن الملاحظ أنه " في هذه الفترة اتحنت الثقافة بفروعها وأجناسها، للإعلام وصارت جزءاً من سلطة الصورة المهيمنة"[2]، وينقل شاكر عبد الحميد ما قاله (جانس آبل): "إننا نعيش في عصر الصورة"، وما قاله الناقد (رولان بارت): " نعيش في حضارة الصورة"[3]، وعلى اختلاف تسميات عصرنا، هذا، فمن بين ما يقصد بهذه التسميات، أنه عصر آخر غير العصر الذي كان فيه الشعر يمثل مركز الثقافة. لقد هيمنت في عصرنا أنواع فنية أو أدبية جديدة، بل أحيانا ليست فنية أو أدبية، واستقرت في مركز الثقافة، نافية ما عداها إلى الحواشي والأطراف. ومن المعروف أن الشباب في الماضي كانوا إذا أرادوا أن يعبروا عن أنفسهم يعبرون بالشعر، ولكنهم انصرفوا الآن إلى بدائل أخرى مثل: الموسيقى والغناء...، ومن هنا جاء

---

١ – عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت،١٩٩٣م، ص ١٤.

٢ – بشير العاني، عزلة الشعر عزلة الوهم، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٤٢٢، حزيران، ٢٠٠٦م، .

٣ – شاكر عبد الحميد،عصر الصورة السلبيات والإيجابيات، سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد ٣١١، الكويت،١٩٨٩م ص٧.

أدونيس بتسمية هذه المجموعة بـ "أغنيات" في اعتقادي، وهذا ما يؤكده أدونيس نفسه " أن الرياضة تمثل المجال الأول الذي يأخذ عنه العربي اليوم ثقافته، فضلا عن السينما والأغنية"[١] ولنقف عند أغنيته الأولى "أغنية إلى لحظة ماضية" حيث يقول[٢]:

مرّةً،
سأل الله أعرابَهُ أن يجيئوا إليهِ
فرآهم
بَشراً من حديدٍ ورَمْلٍ
يَحملون على جُمْجُمَهْ
أرْضَهُ المُسْلِمَة.

تلك هي الصورة الأولى التي يقدمها لنا الشاعر عن أجداده وآبائه إذن. وهي صورة معبرة عن بيئة الشاعر ومفعمة بدلالات تراثية، حشد لها الشاعر مفردات واضحة الدلالة، مثل؛ الأعراب/الله/ حديد/ رمل/ جمجمة/ المسلمة، فالأعراب لفظة من بيئة الشاعر، وهم الذين يسكنون بيئة جغرافية تختلف عن أهل الحضر، مما يدل على أن الشاعر نتاج بيئته؛ فهو يصف أجداده، بأنهم أقوياء يدافعون عن أرضهم بقوة، فالشاعر ما زال ينهل من موروثه التراثي، من تاريخ آبائه وأجداده. أليس عنوان أغنيته- (أغنية إلى لحظة ماضية)- دليلا على ما نقول؟! إن الشاعر هنا يسترجع قوة أجداده وصفاتهم، ويعلن الحب والولاء للجنوب ويصرح بالاستعداد للتضحية من أجله.

ونراه في أغنيته الثانية "أغنية إلى هذا الزمان" عندما يقول[٣]:

أحمد، مريمٌ/ كريمٌ
قرأوا ما يقول المكان وما يكتب المستحيل
...
خيّلوا أنه السّاقُ والجِذْعُ، واستشرفوا رياحاً
من جديدٍ تُلقِّح هذا الزّمانْ.

---

١ - ينظر: أدونيس، الثابت والمتحول صدمة الحداثة، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص٢٢٢.

٢ - أدونيس،مجموعة أغنيات، ص ١٦١.

٣ - أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٢.

تغني هذه القصيدة باسم المكان، وتصور معاناة الشاعر فقدان الأمان والسكينة، على مستوى حياته الداخلية والخارجية، فالحياة الخارجية ما هي إلا انعكاس لتلك الحياة الداخلية. إن الشاعر ينظر دائما إلى الماضي، لأنه يعتقد أن القوة هناك!.فالشباب قرأوا المكان وذهبوا للنخيل رمز القوة والجمال، فأخبرهم بالذي كان، ودهشوا لانقلاب الوضع الحالي، فالشمال جنوب والجنوب شمال. ولم تستمر هذه الحيرة في رؤية الشاعر، إذ سرعان ما وجد بارقة أمل بولادة حياة جديدة.

أما في أغنيته الثالثة " أغنية إلى الزمن – الضدّ، فيقول[1]:

لو تجرّأتُ، قلتُ: النجوم، السماء وتاريخُها،
الناسُ، واللغة القائمةْ
جُثثٌ عائمةْ
...

هذه الصورة هي صورة مكملة للصورة الأولى التي قدمها الشاعر عن حاضره الحزين، ويمضي الشاعر بذات الاتجاه، أعني الاتجاه المتشائم في النظر إلى الحاضر، حيث نجد أن الشاعر لو تجرّأ على قول الحقيقة لقال أشياء كثيرة (الجثث/ الحرق/ المدن الآفلة/ الرماد/ الجريمة)، والشاعر يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم، وهذه دلالة على الخوف الذي يعيشه الشاعر فهو يريد الاعتراف والبوح بكل ما يراه ويشاهده ولكنه لا يستطيع، فـ" إحساس أدونيس بهول الغزو وبانكماش الوجود الذاتي، وبغياب السند والمتكأ، ساقه، باشمئزاز وذهول، إلى تصوير أبشع أنواع الانتهاك للوجود البشري[2].

ها هو في أغنيته الرابعة " أغنية إلى الوقت" يوضّح هول الألم والعذاب الذي يتعرض له الجنوب، فيقول[3]:

إنه الوقْتُ، وقت الحصار، الذي لا يَرى
غيرَ هذا الدّم المتنقّل بين الشوارع،
...

---

١ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٣.

٢ – علي الشرع، قصيدتان في زمن الحصار، ص١٦٦.

٣ – مجموعة أغنيات، ص ١٦٤.

وأقول لوجه الجنوب: توجهت أنّى توجهت أتبعك،

...

فعنوان الأغنية يشير إلى الوقت وأهميته، فهو وقت الحصار والدم ولكن على الرغم من ذلك لا بدّ من التحدي والإصرار للدفاع عن الوطن، ومتابعة الجنوب أنّى توجه فسنتبعه، ونوجه نارنا للأعداء، فالشاعر حالم، وحلمه أن يحرر وطنه، فهذه الأغنية بمثابة إعلان حب للجنوب.

يقول في أغنيته التالية" أغنية إلى المعنى" (١):

ليس هذا زمان البداءِ ولا آخر الأزمنهْ

إنّه نَهرُ الجرحِ يدفقُ من صدر آدَم،-

معناه يُغل في الأرض،

والشمس صورته المعلنهْ.

نلحظ أن مرجعية الشاعر في هذه الأغنية تعود إلى آدم وبدء الخليقة، فالشاعر حاول "أن ينفذ إلى مثل هذه التصورات وبالتالي أن يحورها عن توجهاتها الفكرية الخاصة بها لتخدم نزعته الإنسانية القلقة المتشككة"(٢). والصورة التي يقدمها الشاعر عن نفسه أو عن آدم، هي صورة النزف منذ البدء، فلقّب الشاعر العدوان بالنهر يتناسل ويستمر، فمشاعر الألم والحزن واضحة هنا. ونستطيع أن نتلمس ذلك بسهولة لدى الشاعر. تلك إذن هي أزمته التي أودعها في هذه القصيدة وفي القصائد السابقة لها. فهذا الزمن، زمن الشاعر، هو زمن الألم والقتل والحرق.

ويقول في قصيدته " أغنية إلى اللغات"(٣):

كل تلك اللغات- الشظايا، خمائرُ

للمدن المقبلة

غيّروا بنيةَ الاسم والفعل والحرف، قولوا

لم يعد بينا حجابٌ

---

١ - أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٥.

٢ - علي الشرع، لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث، منشورات اليرموك، ١٩٩١م، ص ٦٩-٧٠.

٣ أدونيس، مجموعة أغنيات، ص١٧٠.

لم تعد بيننا سدودٌ،
واشرحو صدوركم
بالفواتح من سورِ الرّغبات،
وجنّاتها المقفلهْ.

نلحظ في أغنيته هذه وكأنه يتطلع إلى العالمية،فقد سئم الحرب وويلاتها، فيدعوا إلى تغيير نمط الحياة والتطلع إلى الأمام، إلى العالم، ونلحظ أيضا تأثره بالموروث الديني من خلال المفردات الآتية"(حجاب، اشرحوا صدوركم، الفواتح من سور، جنّاتها).

ومن خلال قراءة "الأغاني" نجدِ أن الشاعر يحاول بثّ الأمل في النفوس لتحقيق أحلامها، وتغيير الوضع الراهن، من خلال التبشير بأن الموت بلد الحياة، فالشهداء أحياء، فهذه الأشلاء تمهد الخطى للعب / للطفل/ للرياح/ للقاح... .

ونلاحظ أن مرجعية الشاعر هنا مرجعية دينية وتاريخية، خاصة عندما يقول: (أنا كربلاءُ الحنينِ، وتصرخُ: يا سيّدي الحسين(١).

وفي أغنيته الأخيرة بعنوان" الاسم"، يقول(٢):

كان هذا الذي يتغطى
بالرماد (يغني
للرماد وأسرارِه
يتموجِ، يعلو...)
...
والذي حضته بساتينُه
وقراه، وفلاحُهُ، والطفولةُ، والعاشقاتُ
وعشاقهنَّ،
الذي جاء من عتَماتِ الدروب، وجاءت إليه
الدروب،
...

---

١ –أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٧٤.

٢ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٨٣–١٨٦.

هذا الجنوبْ
سيداً، جامحاً مثل موجٍ
صامتاً مثل صخرٍ
لم يَقُلْ مرةً باسمِه
(الشمال اسمُهُ
بعلبكّ وبيروتُ والأرزُ والفقراءُ اسمُهُ)
...
كان هذا الجنوبْ.

عنوان الأغنية "الاسم" ويقصد به الشاعر(لبنان- الجنوب) ، فالمكان يشكل بعدا من أبعاد النص الشعري، منه تنبثق مختلف الصور، إذ يسهم في بناء النص الشعري كما يسهم في مسيرة نموه، فهو من المكونات الفعالة فيه، إنّ الجنوب هذا " الدال المكاني لا يأتي إلا بوصفه حاملا للهاجس الشعري، حيث يشير نوع المكان إلى الخلفية النفسية والاجتماعية والعقائدية والإيديولوجية التي تصدر منها الذات الشاعرة"[1]،.

يمكن القول، في ضوء ما تقدم، ومن خلال القصيدة الأخيرة بخاصة، إن أدونيس يقدّم هذه الأغنيات إلى السيد الجنوب (الكفاح العربي)، فهو عمد إلى أن يقدّم أفكاره (أغنياته) ليبيّن حالة العرب وقوتهم في الماضي وحال ضعفهم الآن، فهم في حصار مكبّلون لا يستطيعون حتى المطالبة بحقوقهم والشكوى من سوء واقعهم ومآسيهم، إلا أن هنالك بارقة أمل في إشراق شمس الحياة من جديد. إذن هذه الأغاني بمثابة احتجاج على هذا الواقع الذي يعيشُ فيه، ومن هنا أصبح الجنوب رمزا يسهم في إنتاج المعنى، بحيث يرمز من خلالها إلى التاريخ والهوية... وإلى مجموعة من القضايا كالتجدد والأمل والولادة وأيضا ينظر إلى المستقبل الآتي.

ومن هنا، يمكن النظرُ إلى العنوان على أنه مؤشرٌ إعلاميٌّ لسانيٌّ يلفتُ اهتمام الباحث؛ لما له من دور يُعد ضرورة قصوى للنص الشعري أو القصيدة، ولما له من ارتباط عضوي به، ولما يؤدي النظر فيه إلى اكتشاف علاقاته مع النص نفسه. ولعلنا ندرك، مع

---

١ – حسن لشقر، الدال المكاني: أمكنة أدونيس الشعرية، مجلة كتابات معاصرة، العدد٥٤، المجلد ١٤، تشرين ١–تشرين٢ ٢٠٠٤م، ص٦٧.

ذلك، مقدار الأهمية التي يوليها الباحثون المعاصرون لدراسة العنوان خاصة؛ من أجل استكشاف وظائفه، التي لم تعد مجرد إجابة عن سؤال استفساري حول النص أو جنسه أو صاحبه، بقدر ما أصبحت علاقة جدلية، تبدأ بالعنوان، ولا تنتهي عنده، وإنما تمتد إلى النص باتجاهات عميقة، مثلما تتجه إلى المتلقي[1].

الجمل المفتاحية:

هناك بعض الكلمات أو الجمل التي يختارها الشاعر ليُحمّلها رؤاه وتصوراته في النص، هذه الكلمات هي التي تضيء النص، وتمثل علامات على موقف المبدع من الأشياء، ومن مفاتيح النص لدى أدونيس، تلك الجمل القائمة على "التلقيح"، وهذه اللفظة نجدها تدور في الكثير من قصائد المجموعة، والتلقيح أداة للتغيير والتحول، فهو يؤدي إلى ولادة جديدة، يقول[2]:

أحمد، مريم، كريم

...

وأتوا للنّخيل يهزّونَ جذع النّخيلْ:

...

خيّلوا أنّه السّاق والجذعُ، واستشرفوا رياحاً

من جديدٍ تُلقّح هذا الزمانْ

وأيضاً (أحمد، مريم، كريم) هذه الأسماء الثلاثة نجدها تدور على وفق هذا الترتيب في عدة قصائد ما يشير إلى وحدة الدوال الرامزة فيها، وإلى أنها من الجمل المفتاحية المهمة لدى الشاعر.

ومن الكلمات المفتاحية أيضا في هذه المجموعة " السيد الجنوب" فهي تختزل تصورات كليّة وتركز الضوء على قضية مهمة تشغل بال الشاعر، يقول:

كان هذا الجنوب

---

١ – انظر: أحمد جبر شعث، تجليات التناص في جدارية محمود درويش، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٣، العدد ٤، تشرين أول، ٢٠٠٧م، ص ص ١٢٥– ١٣٥.

٢ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٢.

سيداً، جامحاً مثل موجٍ
صامتاً مثلَ ضخرٍ،
كان هذا الذي كاد أن يمّحي
في رداء التواضع كي لا يقال: الجنوب
كان هذا الجنوب.

فالجنوب، رغم الحصار والدمار والحرب والدماء والنزيف، صامد قادر على الوقوف لا ينحني...إنّه الجنوب الذي كان ولا زال شامخا أبيا...

- الضمائر:

ومن تقانات أدونيس البارعة توظيفه الضمائر لكشف خبايا النص، ومنح جمله الطراوة والحلاوة، فلاستخدام الضمائر في العمل الأدبي مدلوله؛ فمن خلاله نرصد تحولات الموقف وتوجهاته، وتعدد الأصوات، وحضور الأنا وغيابها، وتفاعلها مع غيرها من الضمائر سلبا أو إيجابا، فالأنا (الضمير) في النص هي أنا الشاعر في أغلب الأوقات، وفي هذه المجموعة سيتم البحث عن طبيعة الأنا وكيفية ظهورها أو غيابها، وطبيعة تفاعلها مع بقية الضمائر الأخرى .

إن أدونيس يرفع من أهمية الضمير الفردي ويتمرد على قيم الجماعة، المستسلمة لمنطق الغيب، التي تعيش منتظرة الفرج دون فاعلية، ويقول[1]:

إنه الوقتُ: وقت الحصار، الذي لا يرى
غيرَ هذا الدّم المتنقل بين الشوارع،
ملءَ البيوت الذي لا يرى
غيرَ هذا التفجُّر في جسدٍ لا يُرى،
وأقول لوجه الجنوب: توجّهتُ
أنّى توجهتَ أتبعْكَ، تمضي

فالصوت هو صوت الشاعر وهو ضمير (الأنا)، فهو يعبر عن الرؤية الأدونيسية الفردية، فالوقت، وقت الحصار، مليء بالدم والجثث، ويؤكد هذا الضمير على تصميمه ومتابعته للجنوب والدفاع عنه.

---

١ - أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٤.

فهاهو يقول في "أغنية إلى الزمن –الضد" [1]:

لو تجرأتُ، قلتُ : النجوم، السماء وتاريخُها،
الناسُ، واللغةُ القائمه
جثث عائمهْ
لو تجرأتُ، ساءلتُ، منْ يُحرقُ الآن؟
...

وإذا كان ضمير (الأنا) هو المسيطر على هذه الأغنية؛ فلأنه الوحيد العارف والقادر على التغيير، فهو يعرف أسرار التاريخ والسماء والناس، وهو الذي يرى هذه الجثث عائمة ملقاة على الدروب، وهذا كله بسبب الحصار والخوف.

ويقول[2]:

ليس هذا زمان البداء ولا آخر الأزمنة
إنّه نهرُ الجرح يدفق من صدر آدم،–
معناهُ يُوغل في الأرض،
والشمس صورته المعلنةْ.

فالصوت هنا صوت الشاعر الذي يقر بحقيقة معروفة منذ بدء الخليقة، فهناك جرح ينزف منذ عهد قابيل وهابيل.

ويقول في " أغنية إلى المائدة"[3]:

للصداقة بيني وبين الجنوب، وأحزانه العائدة
كتبٌ، وثيابٌ
نسجتها البيوتُ، الرياحُ، العناصرُ/
لا تهدمِ القاعدهْ
ابتهجْ واقتحمْ
وادعُ مصباحَ هذي الدروب لكي
يؤنسَ المائدهْ

---

١ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٣.

٢ –أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٥.

٣ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٧.

فالصوت هنا هو الصوت الأدونيسي، هو صوت التحوّل والتغيير، فهو يدعو إلى الابتهاج والاقتحام، وجلب المصباح، لينير المائدة، لذلك تتفاعل أنا الشاعر مع ضمير المخاطب وتدعوه للتحرر والاعتراف للجنوب بأن التحرر قريب وأنّ قامة الموت محنيّة[1]:

ابتهج واعترفْ
للجنوب، لشمس الجنوبِ، لنيرانِ
أحشائه المُضمرةْ
...
وأقول الوصول قريب قريب
وأرى قامة الموت محنيّة
وأقول التواريخ تزهو وتقطف أعشابها المُسكرةْ.

وفي آخر قصيدة في المجموعة بعنوان " الاسم" نرى صوت الراوية الذي هو صوت الشاعر ظاهراً في كل مقاطع القصيدة فهو المتحدث وهو الذي يخبرنا بالأحداث وبالمؤامرات التي حصلت للجنوب، وعلى الرغم من ذلك فالجنوب وقف صامدا جامحا مثل الموج والصخر[2]:

كان هذا الذي يتغطّى
بالرماد (يغني
للرماد وأسراره
يتموج، يعلو...)
...
كان هذا الجنوب
سيداً، جامحاً مثل موجٍ
صامتاً مثلَ صخرٍ،
...

---

١ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦٨.

٢ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٨٣.

فضمير (الأنا) يتفاعل مع ضمير الـ (هو)، ليجمع بين إحساسه بوصفه شاعراً وإحساسه بما هو مواطن فرد يجري عليه ما يجري على غيره (فـ/أنا/ الشاعر تسافر وتندمج وتتماهى في ضمير الهو والنحن/الآخر)، وهذا يعني، من زاوية نفسية، ابتعاد الشاعر عن نرجسيته وتخلصه منها.

إذن، نلاحظ في مجموعة "أغنيات" من كتاب " الحصار" تحولاً في رؤيا أدونيس ؛ إذ خرج من الرؤيا التي ترى أن ضمير الجماعة هو الذي يحقق للفرد دوره، فالشاعر فرد في الجماعة، ولكنه في كتابه هذا يتحوّل تحولا ملحوظا، فيرى أن الفرد هو القادر على التغيير، وأهمية التمرد على الرؤية الجماعية المستسلمة للواقع، الغير قادرة على إحداث تغيير.

والتجديد في الشعر إنما يتمظهر من خلال اللغة والصورة وطرائف التعبير عن التجربة الذاتية، وأدونيس من خلال مجموعته " أغنيات" قد سخّر لغة مغرقة في شاعريتها، بدءاً من العنوان مروراً بالأغنيات. ولا بدّ من وقفة عند الصورة كذلك وملامح تشكيلها في شعره.

اللغة:-

تمثل اللغة عنصرا مهما في تحديد خصوصية الإنسان، فهي ظاهرة إنسانية، وهي وسيلة اتصال، " تبطن عددا كبيرا آخر من نظم التقاليد الاجتماعية، العرف الاجتماعي، الطقوس، العقيدة، ثم الفنون التمثيلية... هذه النظم، نظم نمذجة ثانوية، وفي مجال الأدب يعدّ النص أكثر وحدة تنظيم ملموسة لأنه- على كل حال- قابل لفك رموزه، فقط في حدود نظامه المنظم"[1] . فاللغة الشعرية الحديثة تمثل "مرحلة انعطاف كبيرة في تاريخ الأدب العربي كله، وهي بأبسط الصور تمثل صراع هويتين ثقافيتين"[2]، ويؤكد الشرع على مرجعية الشعر بقوله" إن البحث عن مرجعية النص الشعري أمر ضروري جداً للتعامل مع لغة هذا الشعر من أجل تفسيرها وتبرير ما يعتريها من غموض في الدلالة، فمن خلال هذه المرجعية، تتشكل لغة الشعر العربي المعاصر وصوره، زمن خلالها تتحقق

---

١ – بارتون جونسون: دراسة يوري لوتمان البنيوية للشعر– ضمن مداخل الشعر– ترجمة أمينة رشيد، سيد البحراوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٧٩.

٢ – علي الشرع، لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث، ص ٢٤.

خصوصيته، فالشعر العربي المعاصر، وكل شعر أخر، لا يقيم في فراغ، إنه يستند إلى رصيد هائل من الأنسجة الفكرية واللغوية والتصويرية، وإذا غابت خيوط مرجعية هذا الشعر فإننا سنجد أنفسنا في بحر من المعميات"(١) .

إن اللغة الشعرية هي انحراف عن مسار اللغة في التعبير المباشر، فالكلام " عندما ينحرف انحرافا معينا عن التعبير المباشر، أي عن أقل طرق التعبير حساسية، وعندما يؤدي بنا هذا الانحراف إلى الانتباه بشكل ما إلى دنيا من العلاقات متميزة عن الواقع العملي الخالص، فإننا نرى إمكانية توسيع هذه الرقعة الفذّة، ونشعر أننا وضعنا يدنا على معدن كريم نابض بالحياة، قد يكون قادرا على النمو والتطور...وهو إذا تطوّر فعلا واستخدم ينشأ منه من حيث تأثيره الفني"(٢).

والشعر الحديث، في لغته الشعرية، يقوم على تحطيم الطبيعة الوظيفية التلقائية للغة، فهو لا يحتفظ من العلائق سوى بحركتها وبموسيقاها، وليس بحقيقتها، فالجملة الشعرية هي قول غير متوقع، فهي " تتأسس داخل نص مليء بالثقوب ومليء بالأضواء مليء بالغياب وبالإشارات الدسمة وبدون أن يكون له تنبؤ أو استمرار في النوايا . وبذلك يصبح معارضا للوظيفة الاجتماعية للغة"(٣).

عمد الشعراء المعاصرون إلى تحرير الكلمة العربية من قوالبها الخانقة، وتمكينها من استباق الوجود؛ سواء في تنوع مفرداته وتعابيره الجديدة أو في بنائه وصياغة عباراته. لقد كانت هذه اللغة لغة ترافق الشاعر في أسفاره المجنحة، وفي تطوافه بين ثنايا الروح الغارقة في الكآبة وسماء المثل المنيعة؛ فهي لغة مصقولة ومنمقة، ومترفعة عن كل "ابتذال شعبي" أو كل "شأن عادي"(٤).

---

١ – على الشرع، لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث، ص ٦٥-٦٦.

٢ – الرؤيا الإبداعية، مجموعة مقالات جمعها هانل بلوك وهرمان سالنجر، ترجمة أسعد حليم، الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي، القاهرة، ١٩٦٦م، نقلا عن محمد الأسعد، اللغة الشعرية، ص ١٧.

٣ – رولان بارت، درجة الصفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، بيروت، أكتوبر ١٩٨١م،ص ٥٨.

٤ – كمال خير بك، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، دراسة حول الإطار الاجتماعي الثقافي للاتجاهات والبنى الأدبية، دار الفكر للنشر،بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٢٨.

ومن خلال قراءة المجموعة نلاحظ أن لغتها لغة بسيطة، فيها شيء من استخدام الرموز، تسمح من خلالها بتوصيل الفكرة التي يريد الشاعر للمتلقي، وأن هذه اللغة فيها الكثير من الكلمات التي لم تكن تستخدم من قبل، وسنورد بعض الأمثلة التي توضح ما يدعم رأينا.

وها هو أدونيس يغني في أغنيته " أغنية إلى الجرح"[١]:

أحمد، مريمٌ، كريمٌ
نزل الموت في حيّهم
يتسقط أحلامهم
يتصيّد آخر ما يتوالدُ في ماء أحلامهم،
...

إن هذه الأسماء (أحمد، مريم، كريم)، رموز لأهل الجنوب يترصدهم المحتل والموت، لكنهم يغنون للشمس، ونلاحظ في هذه القصيدة تتردد لأول مرة كلمات مثل: يتوالد، ماء أحلامهم، وهي كلمات لم تكن تستخدم من قبل في الشعر، فالشاعر اختار" لغة تصدم الجمهور من خلال تسمية الأشياء بأسمائها ومن خلال انتهاك محرمات الماضي وحياة الأسلاف... فاستخدم كلمات نابية أو فاحشة"[٢].

وهنا نلحظ أن أدونيس تبنّى ما يُسمى بالجسارة اللغوية، فأخذ" يتحرر من اللغة التقليدية إلى لغة الحياة اليومية، حيث راح يكسبها دلالات حية تعبر بجلاء عن المشهد الذي يتعرض له"[٣].

وتعد قصيدة "أغنية إلى لحظة ماضية" من القصائد المبنية بلغة الحياة اليومية المتداولة، لتكتسب مذاقا جديدا وتومي برؤى جديدة في سياق القصيدة [٤]:

مرّةً،

---

١ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٧٥.

٢ – علي الشرع، لغة الشعر العربي المعاصر، ص ٣٣.

٣ – انظر:عبد الله أحمد المهنا، الحداثة وبعض الناصر المحدثة للقصيدة العربية المعاصرة، عالم الفكر، الكويت، (اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر،١٩٨١م)، ص ٢١.

٤ – ادونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٦١.

سأل الله أعرابَهُ أن يجيئوا إليهِ
فرآهم
بَشراً من حديدٍ ورمل
يحملون على جمجمهْ
أرضَهُ المُسلمَه.

فنلحظ هنا استخدامه لـ (مرّةً) التي تستخدم في القص الشعبي.

نلحظ كثرة ألفاظ (الجنوب، الشمال، الزمان، الحرق، الرماد، الجثث، الجريمة، الدم، الجرح، نيران، القنابل، الموت، والحياة، والحزن...) في أغاني أدونيس وكأنَّ الحصار أيقظ روح الشاعر من غفوتها، وبثَّ فيها نبضاً جديداً غير ذلك النبض، وجعلها تتأهّب للدفاع عن الأرض عن الجنوب المحاصر.

ونورد هنا مقطعاً من " الاسم"[1]:

كل ما قالهُ هذه الأغنية:
" شجر البرتقالْ مُثقلٌ بالقنابل والراصدينَ،
فكيف سيهربُ هذا الدخيلُ ومن أينَ؟
لا منفذٌ في السهول،
ولا عاصمٌ في الجبالْ".

هذا الأسلوب الأدبي المتماسك الذي كتب به أدونيس جاء وليد مضمون إنساني لجتماعي مليء بالأسى والتناقض والألم؛ فكان من الطبيعي أن يختار اللفظة المناسبة، فإيراد الشاعر لفظة البرتقال إلى جانب لفظة القنابل يريد منه تعميق الإحساس بقدرة الجنوب على حماية أبنائه، فالسهول ليست مكاناً للاختباء وليس في الجبال من عاصم، فأين سيهرب الدخيل!!!!

أدونيس من الذين أتقنوا اللعبة اللغوية، واضعاً نصب عينيه جمهوره المتشعب الثقافات والمتباين الأفكار والاهتمامات وطرائق التفكير، فكان " شعره واضحاً من غير تسطح، وعميقاً من غير غموض، ومتوازناً ومتآلفاً من غير تشتت أو ضياع...فاعتنى بموقع باللفظة وعاينها في موقعها من الجملة الشعرية وعلاقتها بما يسبقها من كلمات

---

١ – أدونيس، مجموعة أغنيات، ص ١٨٥.

ويأتي بعدها من مفردات، لتعطي المدلول الذي يريده ،معتمداً على تفجير طاقات اللغة من داخلها لتكون قادرة على توليد دلالات ذهنية ونفسية لدى القارئ، محملاً إياها شحنة من القلق والألم والتوتر، أو السخرية التي تنفس عنه ضغوط الإحباط وكثيراً ما يلجأ إلى وضع الجمع بين ألفاظ متناقضة ومتعاكسة في صياغاته لتعميق الأثر النفسي الذي تخلقه مثل هذه المفارقات اللغوية التي تشي بولادة جديدة لكلام قديم كان يستعمله بشكل اعتيادي، وهنا يحمّل الشاعر المتلقي مهمة الكشف عن دلالات الأشكال الجديدة وما توحيه من وظيفة جديدة "إن الأديب يعمل على خلق لغة من لغة أي ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة هي لغة الأثر الفني"[1]، ومن ثم فنحن بإزاء لغة شعرية تعبر عن عمق التجربة الذاتية من خلال تفاعلها مع معطيات المجتمع، ونقل التجربة والخبرة للمتلقي؛ فالشعر يستنفد في الكلمات كل طاقاتها التصويرية والإيحائية لإيصال رسالته للمتلقي.

١ – أحمد محمد المعتوق في كتابه، الحضيلة اللغوية، من سلسلة عالم المعرفة، آب عام ١٩٩٦.

الخاتمة:

- إن شعر أدونيس في هذه المجموعة، هو صورة لتجربته السياسية والوطنية والإنسانية. فالمجموعة تمتلك رؤية شعرية ذات سمات متميزة ومتفردة، تقول الكثير بلغتها الغامضة، لكن القريبة مع ذلك من الوضوح.

- تمثل هذه المجموعة نوعا من التأملات والرجوع إلى الذات واجترار المخزون من الخبرة الذاتية، فهي تشكل عنصرا أساسيا في البناء الفني للقصيدة، فقد بنيت على أساس حركة التنقل بين عالم الذات (بما في ذلك التاريخ الشخصي للشاعر)، والعالم الآخر (بما في ذلك مجموعة الروابط والعلاقات التي تشدهما إلى الكيان العربي: حاضرا وماضيا، وواقعا جغرافيا وسياسيا وعسكريا).

- إن رجعة الشاعر للماضي توفر له إمكانات هائلة تسعفه في توليد الدلالة أو المعنى، وإن كانت هذه الرجعة تجعل لغته الشعرية حبيسة المراجع التي رجع إليها، الأمر الذي يلقي على متلقي شعره مسؤولية التنبه إلى هذه المراجع ليعرف البذور المشكلة للغة هذا الشاعر وبالتالي البذور المشكلة لأخيلته ودلالة لغته.

- إن هذه المجموعة في مواجهة العدوان والحرب تمثل ميدانا تعبيريا واسعا من الوجدانيات المركبة والمعقدة، كما تمثل آفاقا واسعة من الخواطر ومحاولات التدقيق والتحليل والتذكير والتنوير، وهي في الوقت نفسه دوائة من الهواجس واللعنات والأغنيات.

- نلاحظ في هذه المجموعة الاتساع الوجداني المترامي والحس الدرامي الجماعي، ولعله يندر أن نجد في تجاربنا الشعرية القديمة هذه الأغنية الجماعية في دوامة الفتك والدمار، الأغنية التي يقدمها أدونيس في مجموعته.

- إن لغة المجموعة لغة السهل الممتنع، وهي لغة قريبة من لغة الحياة المعاشة، وهذا ما أكده أدونيس بقوله: "حقاً أن على اللغة أن تساير تجربته- أي الشاعر- بكل ما فيها من التناقض والغنى والتوتر".

- إن الحديث عن مرجعية النص الشعري المعاصر أمر ضروري للتعامل مع لغة هذا الشعر من أجل تفسيرها وتبرير ما يعتريها من غموض في الدلالة، فمن خلال هذه المرجعية تتشكل لغة الشاعر العربي المعاصر وصوره، ومن خلالها تحقق خصوصيته.

– ثمة دور للبيئة في لغة الشاعر وصوره، فمن خلالها يستمد الشاعر ألفاظه ومفرداته ؛ فهي من العوامل المحيطة التي تؤثر بالشاعر في تعزيز مدركاته الحسية حيث أن البيئة تشكل مصدراً ملهماً للكثير من النصوص الأدبية.

– لم أجد في هذه المجموعة أي أثر واضح وصريح للمؤثر الأجنبي وذلك بسبب موضوع هذا العمل ومضمونه وهو الحصار.

– إن قصائد المجموعة أتت كثيفة ومعبرة ببنيتها الرامزة، وتتوفر على حالة من الثراء الدلالي وتتوفر، وتمنح المتلقي إمكانية تفسيرها حسب إمكاناته المعرفية وإتاحة الفرصة له في إعادة إنتاج القصيدة .

– هذه الدراسة، باعتقادي، حاولت أن تضيء الكثير من الجوانب المهمة في هذه المجموعة، التي لم تطأها أقلام النقد والدراسة، خاصة أنها وردت في تضاعيف ديوان شعري ؛ فهي تستحق التأمل والدراسة لذاتها أولاً ثم لارتباطها بالقصائد جميعاً .

وبعد، إن الكمال لله وحده تفرد به، ولا ادعاء للكمال ممن عرف بالنقص، لذا نتضرّع إليه تعالى أن يسدد خطانا في موقفنا هذا، وإنها لغاية وأمل أن تحوز على الرضا والقبول، فلقد حاولت إنجاز دراسة شاملة لمجموعة " أغنيات". ولا يمكن ادعاء شيء آخر غير بذل الجهد ومحاولة البحث، وحسبي أنني بذلت فيها ما استطعت من جهد.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع:

١- أحمد محمد المعتوق : الحصيلة اللغوية،من سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢١٢، آب، ١٩٩٦م .

٢- أدونيس: كتاب الحصار(حزيران ٨٢-حزيران٨٥)، دار الآداب، ط٢، ١٩٩٦م .

٣- ـــــــــ: الثابت والمتحول صدمة الحداثة، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤م .

٤- أسيمة درويش: مسار التجولات قراءة في شعر أدونيس، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢م .

٥- ايليا سليم الحاوي: نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، ط٣، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٩م .

٦- بارتون جونسون: دراسة يوري لوتمان البنيوية للشعر- ضمن مداخل الشعر- ترجمة أمينة رشيد، سيد البحراوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مايو ١٩٩٦م

٧- بسام قطوس: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠١م، ص ص ٤٦- ٥٣.

٨- روبرت شولز: اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة سعيد الغانمي، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، ص ٩٣.

٩- رولان بارت: درجة الصفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، بيروت، أكتوبر ١٩٨١م .

١٠- زاهر بن مرهون الداودي: الترابط النصي بين الشعر والنثر، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٠م .

١١- خليل الموسى: الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، دمشق، مطبعة الجمهورية، ١٩٩١م .

١٢- سامح الرواشدة، في الأفق الأدونيسي-دراسة في تحليل الخطاب الشعري، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٥م .

١٣- سعيد البحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العامة للنشر، ١٩٩٧م.

١٤- شاكر عبد الحميد:عصر الصورة -السلبيات والإيجابيات-، سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد ٣١١، الكويت،١٩٨٩م.
١٥- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م، .
١٦- علي الشرع: لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي الحديث، منشورات اليرموك، ١٩٩١م.
١٧- كمال خير بك: حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر: دراسة حول الإطار الاجتماعي الثقافي للإتجاهات والبنى الأدبية، دار الفكر للنشر،بيروت ١٩٨٢م.
١٨- محمد الأسعد: مقالة اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
١٩- محمد فكري الجزار: العنوان وسيمبوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ١٥.

المجـــلات:

١- أحمد جبر شعث، تجليات التناص في جدارية محمود درويش، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٣، العدد ٤، تشرين أول، ٢٠٠٧م .
٢- بشير العاني: عزلة الشعر وعزلة الوهم، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٤٢٢، حزيران ٢٠٠٦م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق .
٣- جان طنوس: جدلية النور والظل في كتاب الحصار لأدونيس- الكتابات النثرية، مجلة فصول، العدد ٢١، المجلد ١٦، ١٩٩٧م.
٤- حسن لشقر: الدال المكاني: أمكنة أدونيس الشعرية، مجلة كتابات معاصرة، العدد ٥٤، المجلد ١٤، تشرين ١-تشرين٢ ٢٠٠٤م .
٥- عبدالله أحمد المهنا، الحداثة وبعض العناصر المحدثة للقصيدة العربية المعاصرة، عالم الفكر، الكويت، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر،١٩٨١م .
٦- علي الشرع، قصيدتان في زمن الحصار: محمود درويش،(قصيدة الوقت)، أدونيس، (قصيدة)، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ١، العدد ١، ١٩٩٢م .
٧- نايف العجلوني: قراءة في قصيدة الوقت لأدونيس، مجلة أبحاث اليرموك، مج ٧، ع ١، ١٩٨٩م .

Faculty of Arts
South Valley University

No. (47) 2017

Journal of Qena Faculty of Arts

A Scholarly Refereed Journal - Issoed by Qena Faculty of Arts- South Valley University - Egy